دور المسيد والخلوة في التعليم والدعوة

المسلمي كمال الدين الحاج أحمد*[1]

المستخلص:

تناول هذا البحث المسيد كمؤسسة تعليمية أهلية أسوة بدور المسجد النبوي الشريف أو المساجد في الإسلام، وذكر المدلولات اللغوية والخلفية التاريخية للخلاوي في السودان، وتطرق لأهمية تعليم الناشئة القرآن الكريم ودور الخلوة في التربية والتعليم والسلوك، وتحدث عن منهج الخلوة ومنهج شيوخ المساييد والخلاوي في الدعوة إلى الله تعالى وكذلك أساليبهم الدعوية، وتكلم عن نشر العلم والأدب عبر فنون الشعر، أتبعت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي، وتمثلت أهم النتائج في أن شيوخ المساييد والخلاوي يقدمون جهوداً مباركة خدمة لكتاب الله تعالى وأنهم يقومون بأمر التربية والدعوة محتسبين الأجر والثواب عند الله تبارك وتعالى.

Abstract

This research takes Elmasseed (school for learning Qurran)as a National Learning Corporation like the role Of ElmasejedElnobyElshareef (the prophetic Mosque) all Mosques in Islam and mentioning the significance of teaching the grownups the Holly Qurran and the role of Elkhalwa in education and instruction. The research shows the curriculum of Elkhalwa and the curriculum of Massed Sheiks and Khalawa in Eldawa for Almighty Allah.Besides the styles of Eldwa the researcher talks about spreading of teaching and literature among the arts of poetry.The research adopted the historical descriptive curriculum. The most in important results are:the sheikhs of Massed Khalawy presented good allots in the services of Holly Quran Almighty Allah books and they consider the role of the education and Dawa without payment reward form Almighty Allah.

[1]– أستاذ مشارك جامعة سنار

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله الأمين وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

فإن القرآن الكريم هو كتاب الله لهذه الدعوة، وهو روحها وباعثها وقوامها وكيانها، وهو دستورها ومنهجها، وقد تكفل الاله بحفظه أبد الدهر فقال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر:9)، وسخر له الحفاظ والعلماء يحملونه في صدورهم حفظاً وعلماً، وصدق الله العظيم القائل: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)(العنكبوت: 49).

ولهذا فإن شيوخ الخلاوي والمسايد أدركوا عظمة القرآن وفضله وشرفه وتشرفوا بالقيام بهذه المهمة الجليلة صدقاً واخلاصاً لله تعالى، فتعلموا القرآن وفهموه وعملوا به وعلموه لغيرهم حفظاً وتلاوة وتجويداً من أجل تزكية المجتمع ونشر قيم الحق والفضيلة وتربية الأجيال، وانهم اذ يقدمون هذا العمل العظيم انما يبتغون به الأجر والثواب من الله تعالى لا ليعرف مكانتهم ولا ليقال فيهم المدح والثناء.

أسباب اختيار الموضوع:

من الأسباب التي دفعتني لكتابة هذا البحث: قبل دخول المدرسة الأولية تفتحت عيناي على الخلوة في مسيد والدي العارف بالله الشيخ كمال الدين رحمه الله، وكنت جزءاً من ذلك المسيد الذي كنت أسكن فيه، ووجدت نفسي بين طلبة القرآن، وتمرغت في تراب الخلوة والمسيد، وعرفت طعم الحياة حلوه ومره في ظلالهما الوارفة،وبعد أن فارقتهما بزمن أدركت من خلاله دور الخلوة والمسيد في تأصيل العقيدة وتهذيب النفوس وتقويمها على السلوك الحميد، ومن خلال هذا الفهم أحاول في هذا البحث رد بعض الجميل للخلاوي والمسايد على دورهما الرائد لخدمة القرآن الكريم، والقيام بأمر الدعوة إلى الله تعالى، باعتبارها عبادة من أشرف العبادات، وعمل من أجل الأعمال. (وهل يعرف الشوق إلا من يكابده).

أهداف البحث:

إبراز دور الخلوة في تعليم الناشئة القرآن الكريم، وتوضيح العمل الجليل الذي يقوم به شيوخ الخلاوي والمساعد في رعايتهم واهتمامهم بحفظة كتاب الله تعالى، وإظهار دورهم الريادي في قيادة المجتمع، وتوضيح فضائلهم ومكارم أخلاقهم وقيامهم بأمر الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة.

منهج البحث:

المنهج المتبع في هذا البحث هو المنهج الوصفي التاريخي.

المبحث الأول

الخلوة والمسيد المؤسسة التعليمية (الدور التعليمي)

مصطلح الخلوة:

أما مصطلح الخلوة فهو من خلا يخلو خُلُوّاً أو خلاءً، وأخلى: إذا لم يكن فيه أحد ولا شيء فيه وهو خال، وخلا لك الشيء بمعنى فرغ، ومنه أخْل أمرك وأخْل بأمرك أي تفرَّد به وتفرَّغ له، ومنه استخلاء المجلس، وتستخلي به أي تستقل به وتنفرد، وخَلا على الشيء اقتصر عليه ([2]).

والخلوة في الفقه: إغلاق الرجل الباب على زوجته وانفراده بها. وقد أخذ أشياخنا مصطلح الخلوة من هذه الوجوه يعنون بها: الاستقلال والانفراد والتفرّغ في المجلس الذي يستخلي به الشيخ عن الناس متفرغاً للتعبد ولقراءة القرآن وتعليمه، وهكذا شأن طلاب العلم اقتداءً بشيخهم، وكائناً ما كانت دلالة كلمة الخلوة، إفراداً أو جمعاً، فهي تسمية محلية واستعمال خاص بأهل السودان، وربما كان الأصل في ذلك أن الشيوخ كانوا يتفرغون لتعليم القرآن والعلوم الشرعية، ثم يتخذ كل شيخ واحد منهم لنفسه خلوة يتعبد فيها ويقرئ القرآن ويعلم الناس أمور دينهم،على أن الخلوة كانت أيضاً بحكم العادة المتبعة في المؤسسات التعليمية تتخذ في الأطراف البعيدة عن القرى والمدن،ينأى بها الشيوخ وتلاميذهم عن زحام الناس أو منازعتهم في دنياهم([3]).

وقال الطيب محمد الطيب رحمه الله في كتابه (المسيد) والخلوة في بلادنا لها ثلاثة معاني:

الأول: الخلوة المكان يقصده المرء ليخلو فيه وينقطع عن الناس للذكر والعبادة، وقد تكون الخلوة مبنى أو كهف أو جذع شجرة وقد رأيتهم في منطقة (القلعة) منطقة في

---

[2]– لسان العرب، ابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر، وبيروت، لبنان، 1956م، 226/14 – 243.

[3]– الخلوة والعودة الحلوة (مؤانسة ومدارسة)، أد.أحمد علي الامام، الخلوة والعودة الحلوة،ط11، 1428هـ – 2007م، دار جامعة القرآن الكريم، ص 9–10.

جبال الفاو مشروع الرهد – يحفرون أشجار التبلدي من علي حتى قاعها وينزل المختلي بالدرج ويمكث عدة أيام مختليا في هذا المكان الوعر.

الثاني: الخلوة التي يدرس فيها القرآن ويكون بناؤها مما يتخذونه من الطوب اللبن أو الأحمر أو بيت الشعر ونحوه.

وخلوة تدريس القرآن أكثر شهرة من الخلوة الأولى والثالثة، ولا تنصرف كلمة خلوة بداهة إلا على خلوة تدريس القرآن.

الثالث: الأهالي في السودان يطلقون كلمة خلوة على الحجرة المخصصة نزلا للضيوف فهي كالديوان أو الصالون في البيوت الحضرية، ففي كل القرى نجد الخلوة حتى أهل البادية يخصصون خيمة مما يسكنون ويطلقون عليها اسم الخلوة وهي هنا بالمعنى اللغوي من الخلو، والرجال الذين اشتهروا بالكرم في القبائل تكون في ساحاتهم خلوة أو عدة خلاوي.

والخلوة في الحي أو الفريق عنوان مجد وشارة كرم فالذين يخصصون الخلوة أو الخلاوي في بيوتهم وقراهم يجلبون الحمد والثناء لقومهم وعشيرتهم([4]).

مصطلح المسيد:

إن كلمة مسيد معروفة عند الجمهور، فقد لحقها الإبدال، والإبدال معروف في لهجات العرب وإبدال الجيم (ياء) معروف ومألوف في الماضي والحاضر، وكذلك يغلب بعضهم الياء جيماً كقولهم: يمل بدل جمل وشير بدل شجر.

وذكر الدكتور عون في كتابه (اللهجة العامية في السودان) في مادة مسيد. قال: وقد ذكر ابن مكي أن عامة أهل صقلية يقولون (مسيد) وذكر أن المسيد قد حكاه غير واحد فهو مسموع من العرب وقد نسب لكتاب (لحن العامة) قول الخثعمية ونحن في بلدنا السودان لا نقلب الجيم ولا نحورها فهي عند العام والخاص جيم قرشية.

[4]– المسيد، الطيب محمد الطيب، ط1، 1991م، مؤسسة الصالحاني للطباعة، دمشق، سوريا، ص 66 –67.

وهذا يدل على أن كلمة مسيد تلقفها أهل السودان من أفواه المشايخ الذين توافدوا على السودان في وقت مبكر وأغلبهم قدم من الحجاز والمغرب وأسسوا المسيد، وان كلمة مسيد لا تطلق في بلادنا على المسجد ولا على الجامع ولا على الزاوية إنما تنصرف على المكان الذي يجمع مدرسة القرآن والمصلى والسكن فإذا اجتمعت هذه المناشط (الاستخدامات) الثلاثة كان المسيد، أما إذا كانت مدرسة قرآن فحسب فهي خلوة وربما جاء بها أهل السودان أنفسهم، والمسيد ذاته لا يسمى مسيداً إلا اذا كانت الخلوة هي محور نشاطه فالمسيد بلا خلوة لا يساوي شيئاً([5]).

والمسيد مؤسسة طوعية خيرية تكمن فيها عناصر أصيلة من تكوين المجتمع السوداني، وهو مكان دراسة القرآن الكريم، وتقام فيه المحاضرات والندوات والدورات التعليمية وكذلك الدورات الروحية لتزكية المجتمع، وفيه تتم إحياء المناسبات الدينية لتحريك عواطف الخير عند المسلمين،ففي السابع عشر من رمضان يكون الاحتفال فيه بيوم بدر، لتذكر المسلمين بهذه المعركة ولتحريك عواطف الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، وفي المحرم يحتفل فيه بالهجرة النبوية لتذكير المسلمين بأن حب الإسلام فوق حب الأوطان: وفي شهر ربيع الأول يتم الاحتفال فيه بمولد المصطفى صلى الله عليه وسلم وعرض شمائله وخصائصه وسيرته العطرة، لتعطر بها المجالس وتشنف بها الآذان: من أجل الاقتداء ولتأسى به صلى الله عليه وسلم قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)()[6] وكذلك تقام في المسيد بقية المناسبات الدينية، أما في الأعياد الكبيرة مثل رمضان وعيد الأضحى فيكون الاحتفال بهما أكبر ويكون عدد المريدين أكثر ويأتون إليه من الأماكن القريبة والبعيدة يحدوهم الشوق لزيارة شيخهم ومربيهم وكذلك يجتمعون بإخوانهم في الطريق، ويقدم لهم الشيخ وجبات غذاء تكون لأجسادهم ووجبات روحية يتم من خلالها تذكير المريدين بالله والدار الآخرة وحثهم على السير إلى الله على النهج

[5]– المسيد، الطيب محمد الطيب، المصدر السابق، ص 73 – 74.

[6]– سورة الأحزاب: الآية 21.

القويم والتقرب إليه بالأعمال الصالحة، وفي كل هذه المناسبات تكون الاجتماعات خالية من المخالفات الشرعية.

والمسيد مؤسسة تكافلية يستقبل فيها الضيف والمصروم تحل فيها المشكلات، وتتم فيها الزيجات الجماعية، وهو مكان للتنشئة الاجتماعية ومعرفة الناس ومخالطتهم وتآخيهم وتحابهم في الله، ويأتيه الناس من أصقاع بعيدة داخل وخارج السودان.

والمسيد مكان عظيم تكون فيه حلقات للعلم وحلقات للذكر، وتكون فيه جلسات فيها مواعظ ورقائق وجلسات للإنشاد للترويح على القلوب واختيار الشعر المحرر المنتقى فيها لأنه يحرك في القلب معاني طيبة كالشوق والمحبة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

وكثيراً ما كان لهذه الأمور بركتها في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى.

تـاريخ الخلاوي في الســودان:

لم أعثر على تاريخ يحدد بداية تأسيس الخلاوي في السودان ولكن الخلاوي قد عرفت منذ عهد الفونج حيث تأسست أولى الخلاوي على يد الشيخ محمود العركي، فقد قدم من مصر (1510 – 1520م) وأسس خمسة عشرة خلوة على النيل الأبيض، ولم تشتهر في تلك البلاد من قبله مدرسة علم ولا قرآن([7]).

وبقيام دولة الفونج نشط التعليم الديني وبدأت طلائع الدعاة الإسلاميين تفد إلى مملكة سنار من الأندلس والحجاز والمغرب ومصر والعراق وازدهرت الخلاوي التي كان بعضها قائما منذ عهد مملكتي المقرة وعلوه وكانت مهمتها الأولى تحفيظ القرآن الكريم، ومع ازدهارها برزت حلقات العلم في (المساجد) لتدريس الفقه والتفسير واللغة لمعرفة الميراث وغيره من ضرورات المعرفة، وقصد الطموحون من الحفاظ الحجاز وعادوا منه بعلم وفكر وروح جديد، وقصد قلة آخرون الأزهر بعد زمن طويل

[7]– عبدالمجيد عابدين، تاريخ الثقافة الإسلامية في السودان، ط2، 1967م، المطبعة التجارية، بيروت، لبنان، ص 87.

لنيل المزيد من العلم وأغلبهم اتصل بالأزهر بعد سنة (1000هـ) فأغلب أهل السودان القديم كانوا يقصدون الحجاز.

وغزت جيوش محمد علي باشا السودان في سنة 1821م وادخلت المدارس الحديثة التي تدرس مواد ذات طابع خاص وظلت خلاوي القرآن الكريم في سيرها التقليدي إلى أن اندلعت الثورة المهدية التي أعلنت الجهاد بالقلم والسيف لتحرير البلاد من المستعمر والعودة بالدين إلى ما كان عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أبقت المهدية على الخلاوي لكي تقوم بعبء التعليم الذي صار محصوراً في حفظ القرآن، وتقديراً للقائمين بها فقد أعفى شيخ الخلوة من الخروج إلى الجهاد([8]).

ومن أشهر الخلاوي في عهد الفونج وأقدمها خلوة دنقلا التي أسسها الشيخ غلام الدين بن عائد الركابي، وخلوة الشيخ إسماعيل ولد جابر في دار الشايقية، وخلاوي الغبش غرب بربر، كما اشتهرت خلاوي العركيين واليعقوباب بالجزيرة،وخلاوي الشيخ خوجلي وحمد ود أم مريوم بتوتي، وخلاوي المجاذيب بالدامر، وخلاوي أولاد جابر بقوز العلم قرب شندي.

وفي العهد التركي (1821 – 1881م) كانت الخلاوي منتشرة انتشاراً واسعاً، وكانت أهميتها تتفاوت حسب شهرة الفقهاء الذين يمارسون التدريس فيها، وقد اتخذ إسماعيل باشا (1863 – 1879م) سياسة مساعدة الخلاوي، بدفع مرتبات شهرية لبعض الفقهاء الذين كانوا مسئولين عنها.

ومن أشهر الخلاوي في العهد التركي خلوة العبيد ود بدر في أم ضبان (شرق النيل ولاية الخرطوم)، وخلوة الشيخ محمد الخير أستاذ المهدي في الغبش (غرب مدينة بربر بولاية نهر النيل)، وخلوة الشيخ محمد شريف نور الدائم بأم مرحي (شمال

[8]– بروفسور محمد إبراهيم أبوسليم، الحركة الفكرية في المهدية، دار جامعة الخرطوم للنشر، بدون تاريخ، ص 52.

أمدرمان)، وخلاوي الدواليب في خرسي وبارا (بغرب السودان)، وخلاوي الختمية في شرق السودان([9]).

اهتمام الدولة بحفظة القرآن الكريم:

اهتم الحكام والمسؤولون بالحفظة وخريجي الخلاوي منذ عهد مبكر، وفي العام 1965م صدّق مجلس الوزراء بقيام مؤسسة (إحياء نار القرآن الكريم)، واختارت المؤسسة مجلساً للأمناء يتكون من (خمسة وعشرين عضواً) واختار ذلك المجلس رئيساً له من بين الأعضاء هو السيد (بدوي مصطفى) أحد الوزراء السابقين واختار للسكرتارية الأستاذ (يوسف الخليفة أبوبكر) سكرتير جامعة أم درمان الإسلامية يومئذ، وواصلت المؤسسة أعمالها ومنح وزير التربية سلطاته لمجلس الأمناء باستثناء الاتصالات الخارجية.

وحرصاً على أهمية الدور الذي يقوم به شيخ الخلوة في تحفيظ القرآن الكريم، فإن المسؤولين هيأوا له فترات تدريبية تمتد إلى ثلاثة أشهر يتلقى فيها (شيخ الخلوة) قواعد التجويد، ومعرفة القراءات الصحيحة، وشيئاً من علوم التوحيد واللغة العربية، من أساتذة متخصصين من الأزهر،إعادتهم جمهورية مصر العربية للسودان منذ عام 1968م، تم ذلك في مراكز أقيمت بالخرطوم والخرطوم بحري وأم درمان والدامر وبلغ عدد الذين تلقوا تدريبهم نحو 360 شيخاً، عادوا بعدها يطبقون ما تحصلوا عليه بخلاويهم([10]).

لقد تميز طلاب الخلاوى بالتميز العلمي لاسيما في المدارس الأكاديمية وحديثاً فيما عرف بالمدارس القرآنية وهي تماذج بين الأكاديميات والقرآن الكريم، حيث أثبتت عمليا التفوق العلمي للحفّاظ في حفظ القرآن الكريم وفي المقررات الدراسية، ليكون للحفّاظ ما شاءوا من اختيار لمستقبلهم الدراسي، وقد تهيأ للمعلمين أن يدرَّبوا على

---

[9]– د. ضرار صالح ضرار، تاريخ السودان الحديث، مطبعة سحر، ط1، 1989م، ص97.

[10] – عبدالله أحمد سعيد، تطور التعليم الديني في السودان (رسالة ماجستير)، 1955 – 1995م ، ص 417.

تجويد القرآن وإتقان تلاوته، وذلك من أجل إعداد المعلم المقرئ الجامع، يعلم القرآن العظيم إلى جانب المواد الدراسية الأخرى، وبذلك يبلغ تعظيم المجتمع لحفّاظ القرآن الكريم مداه ومقصده ويصير القرآن العظيم بعلومه وآدابه هو الطاقة الموجهة والقوة الدافعة ([11]).

وكذلك تم إجازة ومنح درجة البكالوريوس (المعادلة) للحفظة واستخدامهم كمعلمين بالمدارس بالدرجة التاسعة وهي تعادل درجة خريجي الجامعات.

[11] – أد. أحمد علي الإمام، الخلوة والعودة الحلوة، مرجع سابق، ص 158.

المبحث الثاني

الدور التربوي للمسيد

دور الخلوة في التربية والتعليم:

إن مدارس التعليم الشرعي وخلوات القرآن ومراكز تحفيظه كانت وما تزال الترسانة العلمية والحصون الثقافية التي دافعت عن قيم الأمة وحفظها ونقلها الى الأجيال واحتفظت بهوية الأمة،وتحولت في فترات تاريخنا الطويل إلى ربطٍ متقدمة للجهاد والدفاع، فحققت النفرة للاجتهاد والنفرة للجهاد أيضاً، وجعلت من خريجيها حصونا لغوية، ومنحتهم أصولاً علمية متينة ومرجعية شرعية للنظر في الفكر والفعل، ومخزوناً لغوياً صوَّب تعبيرهم اللغوي، ونظَّم تفكيرهم، وحمى طاقاتهم من الشتات والضياع، فكانوا الأكثر نبوغاً، والأكثر تفوقاً، والأقوم سلوكاً، حتى في مجالات التخصصات العلمية المتنوعة([12]).

يقول، محمد خير عثمان في حديثه عن تجربة الخلاوي في السودان ودورها في مجال التربية والتعليم: (نرى هذه التجربة الرائدة في تكاملها وعمقها وانتشارها والتي بدأت في ديارنا منذ أوائل القرن الثامن الميلادي وكأنها تخاطب مجتمعات القرن الواحد والعشرين،إنها تحمل كثيراً من الرؤى والطموحات التي ظلت تنادي بها المجتمعات العصرية ولا تكاد تحققها إلا فيما ندر مجانية التعليم، تعميم التعليم، تكافؤ الفرص في تناوله،وارتباطه بالبيئة، قيامه على المنظومة الأخلاقية، بل أنها وفي كثير من جوانبها وتطبيقاتها العلمية تتجاوز الواقع المعاصر إلى مخاطبة المستقبل، حرية الحركة العلمية بإلغاء الحدود الجغرافية بين طلاب العلم ومؤسساته وأساتذته، إشاعة التعليم بلا شروط مقيدة ولا التزامات عصية الخ... كما أنها في سعيها لتحقيق مبدأ (المجتمع المتعلم) أو (التربية المستمرة) وهما من أحلام المتفائلين من دعاة التجديد التربوي– نقلت مفهوم(الأعمال الخيرية) في التعليم إلى واجب والتزام أدبي يكاد في

[12]– تقديم الأستاذ / عمر عبيد حسنه، لكتاب: الخلوة والعودة الحلوة للأستاذ الدكتور، احمد علي الإمام، مصدر سابق، ص3، والأستاذ/ عمر عبيد، رئيس تحرير كتاب الأمة، الدوحة، قطر.

كثير من الأحيان يكون هو الحد الأدنى لإعانة التعليم من الرعاة والحكام والقادرين من المواطنين.إن هذه التجربة كانت تحمل في جوفها خصوصية (التربية الإسلامية) المؤسسة على هدى القرآن الكريم والشريعة المحمدية واجتهادات العلماء والفقهاء المسلمين في عصورهم المختلفة([13]).

حول منهج الخلوة:

الخلوة نظامها حر يقبل كل الأعمار من سن الخامسة فما فوق، وبلا قيد ولا شرط، ولا شهادة ميلاد، ولا رقم وطني، ولا رسوم دراسية (مجاناً)، ونظام الدراسة فيها ميسر ولا يضيّق على الطلبة بل برضائهم ورغبتهم، والوسائل التعليمية فيها هي : الأقلام من(البوص) والحبر (العمار) والدواة (المحبرة) والألواح من الخشب.

فالعملية التعليمية في الخلوة تبدأ بتعليم الشيخ تلاميذه القراءة والكتابة أولاً، ثم بعد ذلك يتحلقون حول الشيخ وهو يملئ عليهم من حافظته القدر الملائم مع كل واحد، وهم يكتبونه على ألواحهم، وهو ما يسمى (الرمية) وإذا فرغوا من الكتابة وصحح الشيخ كتاباتهم على الألواح، عكفوا على حفظ ما كتبوه ثم عرضوه عليه وهو ما يسمى (العرضة) وهي تلاوة التلميذ ما حفظه من لوحه، ثم يلي (العرضة) محو ما كتبه التلميذ على اللوح في مكان معد لذلك وهكذا دواليك.

وفي منهج الخلوة من أجل أن يحافظ التلميذ على ما حفظه لا بد من قراءة أجزاء معينة من حافظته في كل يوم بعد العشاء وهو ما كان يعرف (بالسبع) و (السبع) هو ما درج عليه السلف الصالح أنهم يجزئون القرآن إلى ستة أيام كل يوم خمسة أجزاء يقرؤونها بعد صلاة العشاء بقليل، ثم اهتدى بهديهم قراء القرآن وصار تقليداً في معظم الخلاوي.

[13]– محمد خير عثمان، (وزير التعليم العام السابق)، نقد لكتاب المسيد، للطيب محمد الطيب، مصدر سابق، ص17 –18.

ومن أجل المحافظة على القرآن الكريم حفظاً في الصدور جاءت هذه الوصية النبوية: (تعاهدوا القرآن فو الذي نفسي بيده لهو أشدُّ تفلتاً من الإبل في عُقلِهَا)([14]).

وحول مكانة المسيد في المجتمعات ومنهج الخلوة يقول يوسف الخليفة أبوبكر: (وكان المسيد هو البوتقة التي انصهرت فيها المجتمعات المحلية المتباينة في ثقافتها ولغاتها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها وقيمها، وكانت الخلوة هي الأساس في تنشئة الأجيال السودانية طوال القرون الماضية، وكانت وما تزال مكاناً للتعليم الذي يستمر من المهد إلى اللحد، أو التعليم مدى الحياة، لا تعرف قيداً للالتحاق بها فتقبل الصغير والكبير، وتقبل في كل الأوقات، وتخرج في كل الأوقات، وتعمل في كل الأوقات، لا تعرف حداً لعدد الملتحقين بها، ولا تعرف عدداً من السنوات للبقاء فيها([15]).

ولقد عالجت الخلاوي بمنهجها الآخذ بطلب العلم من المهد إلى اللحد مشكلة العمر الزمني الذي أصبح حائلاً دون إقبال الكبار على التعليم ففتحت الباب واسعاً للجميع بدون حواجز عمرية أو إمكانات مادية، ففي هذا المكان الطاهر خلاوي القرآن يجمع الطلاب من بيئات وأقاليم مختلفة وينصهرون في بوتقة واحدة ويحققون أهدافهم السامية ويتخرجون بسلوك منضبط وبتفوق واضح يميزهم عن غيرهم.

ومنهج الخلوة كان البيئة التعليمية التي حفظت لمجتمعاتنا اعتصامها بحبل الله المتين،واستمساكها بالقيم الفاضلة ([16]).

---

[14] – صحيح مسلم، أبي الحسين مسلم بن الحجاج، باب فضل القرآن ، ط 1403هـ – 1983م، دار الفكر، بيروت، لبنان، حديث رقم (231).

[15] – بحث (دور الخلوة في التعليم الأساسي) مقدم من الأستاذ الدكتور يوسف الخليفة ابوبكر، في مؤتمر سياسات التربية والتعليم، قاعة الشارقة، الخرطوم، قاعة الشعب، أم درمان، 1411هـ – 1990م.

[16] – الخلوة والعودة الحلوة، أ.د. أحمد علي الإمام، مرجع سابق، ص 83.

وكان من يحفظ القرآن العظيم في الخلوة ينال قسطاً من علوم العربية والشريعة ولهذا كان كثير من المزارعين قد سبقت لهم من الله تعالى الحسنى والعناية فحفظوا القرآن العظيم كله أو قاربوه، وتفقهوا في الدين بما تيسر من التفسير وعلوم القرآن العظيم والفقه والعربية، ونفهم كثيراً أن طلبهم للعلم لم يكن إلا لتصحيح العمل وتجويد الأداء.

ولهذا كان التكامل والاتِّساق بين ما ندرس من علوم ومعارف تتآخر كلها، وصبغت بروح التدّين حتى أن دروس اللغة العربية كانت موجهة بأدب الدين في صدق الإيمان وحسن الخلق والزهادة والقناعة، وتُعَدَّ ألفية ابن مالك واحدة من تلك المتون التي كان يترقى في دراستها أهل الخلوة، متناً بعد آخر في ترتيب دراسي خاص مرَّت عليه التجارب المتطاولة والمتوالية في دروس حِلقَ العلم بالجوامع، وحتى أن الكتب التي يدرسها اللاحقون هي المراجع نفسها التي ظلت متوارثة جيلاً فجيلاً بل قرناً فقرناً، وهي طريقة في التعليم مفيدة تقفك على دقائق العلوم وكليّاتها بَدْءً بالتعريف اللغوي والاصطلاحي، مع دراسة محترزات التعريف وقواعد المعرفة([17]).

من أساليب شيوخ الخلاوي والمساجد في الدعوة إلى الله:

إن هؤلاء الشيوخ هم الدعاة إلى الله تعالى، يقدمون هذه الدعوة إلى الناس بالأسلوب الذي وضع له القرآن والسنة الإطار المنهجي في مخاطبة الناس، وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، وبمقابلة الإساءة بالإحسان، وبالقدوة الحسنة، والتبشير لا التعسير والرفق لا التعنت، ويرفعون أصواتهم لدعوة الناس إلى دين الله بباعث الخوف عليهم والنصح لهم، ولا يرفعون سياطهم لحمل الناس على الدين بدافع الكراهية لهم والنغمة منهم، ويحملون هذا الدين إلى الناس حباً فيهم، ولا يحملون الناس على الدين حملاً خوفاً على الدين منهم، ويقدمون دعوتهم للطيبين وغيرهم بأسلوب شيق جذاب،

[17]– هداية القارئ إلى تجويد كلام البارئ، الشيخ عبدالفتاح السيد عجمي المرصفي، ط2، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، بدون تاريخ، 45/1 –49، والخلوة والعودة الحلوة، ص 45.

ويصبرون على أذاهم، ويسألون الله للجميع الهداية لإخراجهم من ظلمات المعصية إلى نور الإيمان.

ومن أساليبهم الدعوية:

1- التزام الحكمة والموعظة الحسنة:

إن شيوخ الخلاوي والمساجد ملتزمون في دعوتهم إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة،وقدوتهم في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أمره الله تبارك وتعالى بالتزام الحكمة والموعظة الحسنة في دعوته الناس، فقال تعالى:(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)([18]) وفسر هذه الآية ابن كثير بقوله: أي من احتاج إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب([19]).

والدرس المكرر في ثنايا الآيات المختلفة هو أن نحاول مخاطبة الناس بأدب جم وأسلوب مهذب والموعظة الحسنة، ثم يخاطبنا قائلاً:(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ).

يقول فتحي يكن في كتابه كيف ندعو إلى الإسلام " فالنفوس جبلت على حب من أحسن إليها، وقد تدفعها القسوة والشدة أحياناً إلى المكابرة والإصرار والنفور فتأخذها العزة بالإثم، وليس من معنى اللين المداهنة والرياء والنفاق، وإنما بذل النصح وإسداء المعروف بأسلوب دمث مؤثر، يفتح القلوب ويشرح الصدور، خاصة إذا كانت الدعوة لجماعة المسلمين فإنه لا ينبغي بحال مجاهرتهم بالتوبيخ والتقريع الشديدين.

ألا ترى إلى القرآن الكريم في معرض التوجيه الرباني يخاطب موسى وهارون عليهما السلام ويوصيهما بمبادأة الطاغية فرعون باللين والحسنى: (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ

---

[18]- سورة النحل: 125.

[19]- إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت – لبنان، 1388هـ – 1969م، الجزء الثاني، ص 591.

إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)([20]) بل أن اللفتات القرآنية والإشارات النبوية إلى الرفق ومجانبة الغلظة والقسوة تؤكد بما لا يحتمل الشك فاعلية هذا الأسلوب وقيمته التوجيهية) ([21]).

وشيوخ الخلاوي والمساييد انتفعوا بصحبة القرآن العظيم، فأصبحت قلوبهم نقية طاهرة سليمة من الحقد والكبر والعُجْب والبغضاء، والحسد، وألسنتهم عفيفة لا تسب أحداً ولا تحتقر أحداً على تقصير إلا التشجيع والتحفيز له على عمل الخير والدعاء له بالهداية والتوفيق، ومنهجهم لا يقوم على التصنيف وتتبع عورات الآخرين والحكم عليهم، لأنهم يستشعرون أنفسهم دعاة لا قضاة، وما التف الناس حولهم وأحبوهم إلاَّ بطلاقة وجوههم وطيب كلامهم وعذوبة حديثهم وعريكتهم اللينة، وإحسانهم للناس وحب الخير لهم.

2- مقابلة الإساءة بالإحسان:

إن مقابلة إساءات الجاهلين بالإحسان إليهم هو من الأخلاق العظيمة التي يتحلى بها شيوخ الخلاوي والمساييد في دعوتهم إلى الله تبارك وتعالى، لأنهم يعلمون أنهم يسلكون طريق الأنبياء والرسل عليهم السلام، وهم يتلون كتاب الله تبارك وتعالى بتدبر وخشوع، ويعلِّمونه لغيرهم، فيجدون فيه قصص الأنبياء والمرسلين وأخبارهم وما لاقوه من صنوف الإيذاء الجسدي أيضاً، ورماهم الناس بعبارات السخرية والاستهزاء، وكذلك إتباع الأنبياء يتعرضون لمثل هذه الإساءات.

ولقد تعرض النبي صلى الله عليه وسلم إلى الشتم والرجم من أهل الطائف حتى سال الدم من قدمه الشريف، وكان رد النبي صلى الله عليه وسلم هو الدعاء

---

[20]- سورة طه: 43-44.

[21]- فتحي يكن، كيف ندعو إلى الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت – سوريا، ط4، 1400هـ – 1980م، ص 41.

المأثور:(اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون)([22]).لم يكن في رد الأنبياء على تلك الإساءات غير الأدب وعفة اللسان، وإظهار الشفقة على قومهم، وإذا تعدى ذلك لم يتجاوز حدود الدفاع عن النفس، ونفى الشبهة، وتجنب الرد بالمثل: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)([23]). (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)([24]).

قال الإمام الزمخشري: (في إجابة الأنبياء عليهم السلام، من نسبهم إلى الضلال والسفاهة – بما أجابوهم من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم، مع علمهم بأن خصومهم أضلَّ الناس وأسفههم– أدب حسن، وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم) ([25]).

وشيوخ الخلاوي والمساييد يرون أن مبدأ التعامل بالمثل انسياق في غير الهدف الأساسي الذي من أجله ينهض الدعاة والمصلحون وأنهم بعيدون عن التعامل بلغة الثأر لأنهم مشاعل تحترق لتضيء للآخرين طريقها، علاوة على أن منطلق الدعوة قائم على أساس مدافعة جهل الناس بتقديم العلاج لهم، وأن أصحاب الدعوات الكبرى إذا أرادوا أن يصلوا إلى أهدافهم يحملون الإساءات على محامل شتى، فهم ينظرون إليها كعوائق في الطريق يجب تجاوزها، فيمرون بها مرور الكرام، كما قال الله

---

[22]– أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، رقم الحديث (1375).

[23]– سورة الأعراف: 66–68.

[24]– سورة الأعراف :60 – 61.

[25]– الزمخشري، الكشاف، تحقيق عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، الآية(67) من سورة الأعراف.

تعالى: (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)([26])(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)([27]) (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)([28]).

وقد ذكر الدكتور أحمد علي الإمام رحمه الله في كتابه (الخلوة) شيخاً من شيوخ الخلاوي له مجاهدات في الدعوة إلى الله تعالى وتحمل الأذى في سبيل الله، فقال وقد قال لي شيخ مجاهد ([29])، صاحب خلوة عريقة عامرة، يتوافد عليها الطلاب من شتى الجهات: لقد كنا نتناوب على ركوب الدابة أو نسير على أقدامنا ندعو إلى الله ونبصِّر بكتاب الله، وربما كان يسخر منَّا بعض من يمرُّ بنا على سياراتهم، ولكننا نرى أننا أحسن منهم حالاً، وأرضى بالاً، وكأننا نمتطي أجواز الفضاء([30]).

لاشك أن مرحلة تأصيل قيم الإسلام في نفس الإنسان يحتاج إلى قدر من فقه الدعوة لا يتوفر لدى الكثيرين، غير أن صوفية أهل السودان لهم في ذلك فقه ومنهج فاعل ومتميز، ويمكننا أن نطلق عليه منهج استصحاب المسيء حتى يحسن إسلامه، ويقوم هذا المنهج على عدم التنفير بالوعيد، وعدم العنف مع المسيء، واستدراج المسلم حتى يستكمل إسلامه، والتجسيد الفعلي لهذا المنهج، تتداول الروايات الشفاهية في الهلالية وما حولها، أن سارقاً سطا يوماً على زريبة كان يحرز فيها الشيخ المرين خرافاً له أعدها لإطعام أهل المسيد وحفظة القرآن، وتمكن هذا اللص من أخذ عشرين خروفاً، وهرب بها وعندما بلغ الخبر للشيخ طلب من مريديه البحث عن اللص، واسترداد الخراف وإحسان معاملته حتى يبلغوا المسيد، ليتولى الشيخ نفسه تأديبه فلما ظفروا به، واحضروه للشيخ، سلم عليه الشيخ سلاماً لطيفاً وداعبه دعابة طيبة، وخيره بين ثلاثة خيارات هي:

---

[26]– سورة الفرقان: 72.

[27]– سورة الفرقان: 63.

[28]– سورة فصلت: 34.

[29]– هو الشيخ فقير عوض، وخلوته العريقة في قرية أوربي بريف القولد في محافظة دنقلا.

[30]– أ.د. أحمد علي الإمام، الخلوة والعودة الحلوة، مصدر سابق، ص74.

تسليمه للشرطة لتتولى محاسبته، أو تسليمه للمريدين ليتولوا تأديبه، والخيار الثالث كان هو أن يقيم السارق مع الشيخ في مسيده، يشهد معه الصلوات، ويحفظ القرآن لمدة ستة شهور يتولى الشيخ فيها الإنفاق على أسرة السارق، أينما تكون، وبالقدر الذي يحدده السارق بالمعروف، فاختار السارق الخيار الأخير، وأقام مع الشيخ في مسيده المدة المحدودة فحفظ ما شاء الله له أن يحفظ من القرآن، وشهد دروس الشيخ ووصاياه، وبعد اكتمال شهور العهد، طلب الشيخ منه أن يأخذ خرافه التي سرقها ويبيعها، ويؤسس بها عملاً تجارياً نظيفاً، تحرج السارق في أول الأمر، ولكنه خضع لمشيئة الله،ثم مشيئة الشيخ، وأخذ الخراف وأسس بها عملاً تجارياً ناجحاً، وأصبح من المنفقين على المسيد ومن المريدين المنتظمين في تمويل المسيد والمخلصين في محبة الشيخ([31]).

هذا النهج في استصحاب المسيء والإحسان إليه والرفق به حتى يحسن إسلامه، هو نهج عام عند هؤلاء الشيوخ، فلم يدعوا يوماً على أحد وإنما يدعون له بالهداية والتوفيق، وهم دائماً معينون لإخوانهم على الخير ولا يعينون عليهم الشيطان، وهذا النهج مستمد من النهج النبوي الشريف، فعن عبدالله بن عبيد رضي الله عنه، قال: لما كسرت رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشج في جبهته فجعلت الدماء تسيل على وجهه قيل: يا رسول الله، ادع عليهم، فقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى لم يبعثني طعاناً ولا لعانا، ولكن بعثني داعية ورحمة، اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون)([32]) وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه

---

[31]– الصوفية بالسودان مصدات ثقافية، وأوعية للعمل الاجتماعي، أد. عبدالرحمن احمد عثمان، دار جامعة أفريقيا العالمية للطباعة، 2004م،ص 48–49، قال المؤلف: هذه رواية شفاعية متداولة في منطقة الهلالية سمعتها رواية من الأستاذ محمد عبد المعروف الأستاذ بجامعة أفريقيا العالمية وهو من مريدي الشيخ الطيب المرين.

[32]– أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ط1، 1407هـ – 1987م، الدار السلفية، الهند، رقم الحديث (1375).

وسلم:(اللهم أهد ثقيفاً)([33])، وثقيف هذه هي التي استقبلت النبي صلى الله عليه وسلم في الطائف شر استقبال، عندما خرج يدعو أهل الطائف إلى الله فقد سلطوا عليه غلمانهم يرجمونه بالحجارة، حتى أدموا قدميه وما كان للحقد والثأر أن يجد له مسلكاً إلى قلبه صلى الله عليه وسلم بل دعا لهم بالهداية لأن رسالته الرحمة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُتي النبي صلى الله عليه وسلم برجل قد شَرب، قال: (أضربوه)، قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده والضارب بنعله والضارب بثوبه، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله، قال صلى الله عليه وسلم: (لا تقولوا هكذا، لا تعُينوا عليه الشيطان)([34]).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رجلاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبدالله، وكان يُلقّبُ حماراً، وكان يُضحُك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب، فأتى به يوماً فأمر فجلده فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تلعنوه، فو الله ما عَلمتُ إنهُ يُحبُ الله ورسوله)([35]).

3- القدوة الحسنة

ومن أساليب هؤلاء الشيوخ في دعوتهم إلى الله تعالى أنهم يكونون في موضع الأسوة والقدوة الحسنة لغيرهم، يسعون لتطبيق الفضائل التي يدعون إليها، يقترن علمهم بعملهم مع إخلاصهم وتجردهم ونكران ذواتهم ومغالبة مطامع النفس وشهواتها، يتعلمون القرآن الكريم ويعلمونه لغيرهم ابتغاء الأجر والمثوبة من الله تعالى، ومن حبهم

---

[33]- أخرجه احمد بن حنبل في مسنده ، طبع دار المعارف بالقاهرة، بدون تاريخ، بتحقيق احمد محمد شاكر، رقم الحديث(14743).

[34]- أخرجه البخاري في صحيحه، رقم الحديث (6777).

[35]- أخرجه البخاري في صحيحه، رقم الحديث (6398).

للقرآن الكريم قلوبهم متعلقة به، وللقرآن الكريم تأثير عظيم على هذه القلوب فيشع منها نور القرآن على وجوههم الناضرة، وكانت سيرتهم بين الناس دالة على الله تعالى.

ولعل هؤلاء الشيوخ هم الذين يشير إليهم الوصف الوارد في الآثار فهو أنهم من يذكركم بالله رؤية أحدهم ويزيد في علمكم منطقة، ويذكركم بالآخرة عمله وعسى أن يكون هم الذين كانت إليهم الإشارة في تفسير القرآن العظيم، للإمام ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)([36])، قال وقد أنشد بعض المفسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف:

إذا سكن الغدير على صفاءٍ *** وجُنِّب أن يُحَركَهُ النسيم

تِرى فيه السماءَ بلا امتراءٍ *** كذاك الشمسُ تبدُو والنَّجوُم

كذاك قلوُب أرباب التجّلي *** يُرى في صفوها اللهُ العظيم

وقد وصف أحمد على الإمام في كتابه (الخلوة) شيوخ الخلاوي بأنهم قدوة حسنة للمجتمع فقال:

كان المجتمع كله يلتف حول الخلوة، فكان شيخها يؤمهم في الصلاة، ويصلح ما بينهم من خلافات، ويتولى تزويجهم، ويسمى أولادهم، ويعلمهم ويؤدبهم ويصحبهم، عائداً مرضاهم، ومشيعاً جنائزهم، آماً صلواتها، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، بل هو يملك حق إزالة المنكر بيده، من غير نكير عليه ولا معارض له فيما يأمر به أو ينهى عنه، ويذكر بالله تعالى حتى يبلغ بالمجتمع طهارة المظهر العام، مع نقاء السريرة والاستقامة على أمر الله تعالى في ائتلاف بين المظهر والمخبر والسر والعلن.

وعليه فإنه لا تغني الكتب وحدها عن إرشاد الناس، بل هم لا يستغنون عن أشياخهم، يدلونهم على الله تعالى بلسان الحال والمقال([37]).

---

[36]– سورة الروم: 27.

[37]– أد. احمد علي الإمام، الخلوة والعودة الحلوة، مرجع سابق، ص 61–62.

يقول مصطفى صادق الرافعي في كتابه الشهير (وحي القلم) من مقالة (الأسد): (والبلد الذي ليس فيه شيخ من أهل الدين الصحيح والنفس الكاملة والأخلاق الإلهية، هو في الجهل كالبلد الذي ليس فيه كتاب من الكتب البتَّة وإن كان في كل محلة منه مدرسة، وفي كل دار من دوره خزانة كتب، فلا تغني هذه الكتب عن الرجال، فإنما هي صواب أو خطأ ينتهي إلى العقل، ولكن الرجل الكامل صواب ينتهي إلى الروح، وهو في تأثيره على الناس أقوى من العلم، ولو أقام الناس عشر سنين يتناظرون في الفضائل ووسائلها، ووضعوا في ذلك مائة كتاب، ثم رأوا رجلا فاضلاً بأصدق معاني الفضيلة، وخالطوه وصحبوه، لكان الرجل وحده أكبر فائدة من تلك المناظرة، وأجدى على الناس منها، وأدلَّ على الفضيلة من مائة كتاب ومن ألف كتاب، ولهذا يرسل الله عز وجل النبي مع كل كتاب منزل ليعطي الكلمة قوة وجودها، ويخرج الحالة النفسية من المعنى المعقول، وينشئ الفضائل الإنسانية)([38]).

[38]– مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، ضبطه وصححه وعلق على حواشيه محمد سعيد العريان، ط دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ج3، ص 45، وما بعدها.

المبحث الثالث

نشر العلم والأدب عبر فنون الشعر

دور الشعر في نشر العلم:

إن شيوخ الخلاوي والمساجد كما يقومون بتهيئة الجو للناس لحفظ كتاب الله تعالى خدمة للإسلام والمسلمين وابتغاء الأجر عند الله، فكذلك يقدمون لهم الشعر وعبره يقدمون لهم قيم الدين من توحيد وصلاة وزكاة وصيام وحج، ومن خلاله يتعرفون على سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم لأنها هي التطبيق العملي للقرآن الكريم.

والشعر هو أول مظهر للأدب عرفه الناس فحسنه حسن وقبيحة قبيح كما قال الإمام الغزالي رحمه الله:(أما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح وعلى الجملة إنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام، وإذا لم يكن فيه كلام مستكره)([39])، وقال صلى الله عليه وسلم:(إن من الشعر لحكمه)([40]).

وقال سعيد حوى في كتابه (كي لا نمضي بعيداً عن احتياجات العصر).

إنه لا شيء يؤثر في تشكيل العواطف مثل الشعر والغناء، لأن النفس البشرية أكثر تفاعلاً مع الشعر، وهي تستقبل الغناء باسترخاء، فتدخل إليها المعاني وتتفاعل معها بلا مقاومة.

ومن ثم وجد الشعر عند الصحابة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ووجد الحداء والإنشاد، وفي بعض الحالات سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغناء من جُوَيْرياتٍ، وسمع أصحابه كذلك.

وفي مسيرة المسلمين التاريخية فصل بين الغناء والإنشاد، فأصبح سماع الغناء – وبخاصة الذي ترافقه الموسيقى – عَلَماً على أهل المجون، وأصبح سماع

---

[39] – الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط2002م، ج3، ص 1850–1851.

[40] – الإمام البخاري، صحيح البخاري، باب ما يجوز من الشعر والرجز، رقم الحديث (5793).

الإنشاد عَلماً على ترخيص أهل الفضل، واستعمل الإنشاد في كثير من دوائر الإسلاميين كوسيلة لتربية العواطف الخيرة، أو لتهييج عواطف الوجد الراقية([41]).

إن الأدب السوداني بكافة ضروبه له صلة واضحة بأمر الإصلاح الديني، بل هو موضوع حاضر باستمرار لدى شعراء السودان إذ أن قيم الدين مكون أصيل ومرجعية هامة للذهنية السودانية يلهمها باستمرار ويوجه منتوجها الأدبي ويتجلى ذلك في شعر الحكمة والرثاء والإخوانيات وحتى أشعار الغزل، ولكن سيد كل ذلك ورائده هو المديح السوداني الذي شكل وجدان أهل السودان على قاعدة محبة الرسول صلى الله عليه وسلم.

من المديح النبوي أخذ كثير من الناس معلوماتهم الإسلامية، منه عرفوا أحداث السيرة النبوية وغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وجهاده في سبيل الدعوة، ومنه تعرفوا على شعائر الدين وأركانه، وفي ثنياها أحكام وحكم العبادات والقربات من صلاة وصيام وزكاة وفي مادته أحكام التوحيد، أما الحج وزيارة النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم فهي مادة أساس فيه تهييج أشواق المحبين، وتربطهم بالأراضي المقدسة وبسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمديح يرصد معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وسيرة أصحابه، فهو اذن المصدر الأهم لثقافة مجتمع السودان الذي تغلب عليه الأمية ويميل إلى الاستماع ويتأثر به أكثر من الكلمة المقروءة([42]).

ويقول أحمد علي الإمام رحمه الله في كتابه (الخلوة):

(ومن تلك الذكريات أيضاً تعلقنا بعد القرآن بالسيرة النبوية المشرفة، وعلى قلة ما كان يتاح لنا أن نستمع إلى المدائح النبوية بسبب الانصراف الكلي لتحصيل القرآن

---

[41] – سعيد حؤّي، كي لا نمضي بعيداً احتياجات العصر، دار عمار – بيروت – عمان، ط1، 1408هـ – 1988م، ص 369.

[42] – شعراء الإصلاح الديني في الأدب السوداني ومدارسه، محمد حجاز مدثر، كلمة استهلال الناشر، عثمان البشير الكباشي، وزير التوجيه والأوقاف ولاية الخرطوم، عبر مجلس الذكر والذاكرين، طبع بجمهوره مصر، 1432هـ – 2011م، ص 3–4.

تلاوة وحفظاً، فقد كان ولا زال يعجبنا من تلك القصائد والأناشيد ما أتصل بذكر الشمائل النبوية، ونحسب أن الأصوات المنبعثة بها كانت من أجواف ملتاعة وقلوب مفعمة بالحب الخالص.

وقد ملكت هذه الخلَّة إعجابي من الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى وأحسن لقاءه وجزاه عن الإسلام خير الجزاء، فإنه كلما أعجبه وصف جميل قاله شاعر في ممدوحه يقول: قال الشاعر يصف ممدوحة ورسول الله صلى الله عليه وسلم أولى به.وإن الأمر حقاً لكما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وأجمل منك لم تَرَ قطُّ عيني *** وأحْسَنُ منك لم تَلد النساءُ

خلقت مبرأ من كلِّ عيب *** كأنك قد خُلقت كما تشاءُ

أو كما قال آخر في المعنى نفسه يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل أمدح بيت قالته العرب:

وما حملت ناقةٍ فوق رَحْلِها * أبرَّ وأوفى ذمة من محمد**

وما فقد الماضون مثل محُمدِ * ولا مثله حتى القيامة يُفقد([43])**

وقد تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه (الصارم المسلول على شاتم الرسول) صلى الله عليه وسلم وهو عن مدح النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وتوقيره والثناء عليه فقال: قيام المديح للنبي صلى الله عليه وسلم قيام للدين وضياعه ضياع للدين)([44]).

والشعر بجانب دوره في قضايا الإصلاح يمثل التأصيل القيم لتراث الأمة الفكري والثقافي والاجتماعي لكل مراحله لاسيما وأن المدونات المكتوبة التي تعني بذلك معروفة، وكان دور الشعر في قضايا الإصلاح يختلف بين عهد وآخر حسب

---

[43] – أ. د. أحمد علي الإمام، الخلوة، مرجع سابق، ص 131.132.

[44] – شيخ الإسلام ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، شركة القدس، القاهرة، مصر، بدون تاريخ، ص 158.

مقتضيات الإصلاح وظروف المجتمع وهو في كل يتخذ المنهج الديني الأخلاقي سبيلاً له، وقد انخرط في مسيرة الدعوة الإسلامية داعياً لها وملتزماً بها زهاء أربعة قرون يمثل الداعية والمعلم والمنهج والتربية والإعلام، وكان شعراؤه هم المشاعل التي اهتدى بها شعبنا في ظلمات الليل الطويل ومتاهات الحياة الواسعة، وكان الشاعر أبداً بطلاً حامياً ومعلماً وإماماً يقتدي به الناس([45]).

[45] – محمد ضيف الله، الطبقات، تحقيق د. يوسف فضل حسن، ط4، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، سنة 1992م، ص114–117، ومحمد حجاز مدثر، شعراء الإصلاح الديني في الأدب السوداني ومدارسه، مرجع سابق، ص 55–56.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد، فإنني وبحمد الله قد بذلت مجهوداً متواضعاً في هذا البحث، وكان ذلك بتوفيق الله وعونه وقد توصلت فيه للنتائج والتوصيات التالية:

النتائج:

1- من خلال استعراضنا لهذا الموضوع تبين لنا ما قدمه شيوخ الخلاوي والمساييد من جهود مباركة خدمة لكتاب الله تعالى.
2- إن شيوخ الخلاوي والمساييد يقومون بأمر التربية راضين محتسبين الأجر والثواب عند الله تبارك وتعالى.
3- تجسد حياة الخلاوي ومؤونتها المادية قيمة غالية جديرة بأن تحيا وهي تحقق وعد الله لمن انفق في سبيله بالخلف في ماله ومؤونته حيث لا ميزانيات ولا احتياط، ولم تجف يوماً قدورها عن الطعام، فهي أيضاً بذاك دور للتربية الروحية.

التوصيات:

1- نوصي القائمين على أمر الدولة وأهل الخير والصلاح الوقوف مع شيوخ الخلاوي والمساييد ومساندتهم وتشجيعهم مادياً ومعنوياً.
2- إدخال التوجيه التربوي في مؤسسات الخلاوي القرآنية وإدخال تقانة المعلومات فضلاً عن الألواح وتحسين البيئة الدراسية في السكن والمرافق الصحية الأخرى.

فنسأل الله أن يتقبل منهم هذا العمل الطيب المبارك وهو القادر على ذلك، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصـــــــادر والمـــراجـــــع

1. القرآن الكـريم.

2.	ابـن خلـدون	:	المقدمة، ط4، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
3.	ابـن منظـور	:	لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1956.
4.	أبي الحسين مسلم بن الحجاج	:	صحيح مسلم، دار الفكر بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
5.	أحمد بن حنبـل	:	المسند، دار المعارف بالقاهرة، بدون تاريخ، بتحقيق أحمد محمد شاكر.
6.	أحمد عبد النبي عبد القادر	:	أسباب انتشار الإسلام بين قبائل الدينكا في مناطق التماس بأعالي النيل (1821 – 1956م) (رسالة دبلوم) غير منشورة قدمت في مركز البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة أفريقيا العالمية، 1999م.
7.	أحمد على الإمام	:	الخلوة والعودة الحلوة مؤانسة ومدارسة، ط11، 1428هـ – 2007م، دار جامعة القرآن الكريم للطباعة.
8.	إسماعيل بن كثيـر	:	تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1388هـ – 1969م.
9.	الإمام البيهقي	:	شعب الايمان، ط1، 1407هـ – 1987م، الدار السلفية، الهند.
10.	الإمام الغزالـي	:	إحياء علوم الدين، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 2002م.
11.	بكري النـاير محمد الزين	:	ورقة بحثية بعنوان: شعر المديح النبوي

			عند الشيخ الصابونابي، دراسة نقدية.
12.	الزمخشري	:	الكشاف، تحقيق عبدالرحمن المهدي، دار احياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.
13.	شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية	:	الصارم المسلول على شاتم الرسول، شركة القدس، القاهرة، مصر، بدون تاريخ.
14.	الشيخ الطيب الصابونابي	:	صحيفة رايات العز، العدد6 السنة الخامسة، 2006م.
15.	ضرار صالح ضرار	:	تاريخ السودان الحديث، مطبعة سحر، ط1،1989م.
16.	الطيب محمد الطيب	:	المسيد، ط1، مؤسسة الصالحاني للطباعة، دمشق – سوريا، 1991م.
17.	عبد الرحمن أحمد عثمان	:	الصوفية بالسودان،مصدات ثقافية وأوعية للعمل الاجتماعي، دار جامعة أفريقيا العالمية للطباعة، 2004م.
18.	عبدالفتاح السيد عجمي المرصفي	:	هداية القارئ إلى تجويد كلام البارئ، ط2، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، بدون تاريخ.
19.	عمر عبيد حنة	:	قدم لكتاب الخلوة والعودة الحلوة، أد. أحمد علي الإمام.
20.	محمد بن إسماعيل البخاري	:	صحيح البخاري، المكتبة الإسلامية السعودية، 1981م.
21.	محمد خير عثمان	:	وزير التعليم العام السابق، نقد لكتاب
22.	مصطفى البكري	:	خلاوي الشيخ الصابونابي، دار جامعة أفريقيا، 1431هـ – 2010م.

23.	مصطفى صادق الرافعي	:	وحي القلم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
24.	يوسف الخليفة أبوبكر	:	دور الخلاوي في التعليم الأساس، بحث مقدم في مؤتمر سياسات التربية والتعليم، قاعة الشارقة، الخرطوم، قاعة الشعب، أم درمان، 1411هـ – 1990م.
25.	يوسف بدري	:	كتب مقدمة لكتاب ملحمة المسيد للشاعر / عبدالله الشيخ البشير.